مجلة اللغة العربية و آدابها
السنة الاولى ـ العدد الاول ـ ربيع ١٤٢٦ ق /٢٠٠٥م
ص ٢٩ ـ ١٥

القديم و الجديد في الشعر و قدرته على التوصيل*

الدكتور نادر نظام طهراني**

خلاصة:

ان الصراع بين القديم و المحدث في الشعر قديم عند العرب بدأ منذ العهد الاموي و اشتد في العصر العباسي، و تمثل حديثاً في الصراع حول التراث و الحداثة و بالتالي قضية التوصيل في الادب العرب و بخاصة الشعر.

و الحقيقة أنه لا يمكن الفصل بين التراث و الحداثة أو القديم و الجديد فلابد للاديب في تجديده أن يعود الى ثقافته و ماضيه، و الشعراء الذين نادوا في أول عهدهم بالانقطاع عن الماضي عادوا مرة أخرى و اعترفوا بأن الشاعر و الاديب ابن ماضيه و حاضره.

و قضية التوصيل كانت قديمة أيضاً و قد رأينا اللغة العربية تبلغ حداً عالياً من القدرة على التوصيل في العصور الاسلامية المزدهرة و اليوم و قد انحسرت هذه اللغة عن كثير من بلاد الاسلام، على العرب أن يعملوا على التجديد في عمق اللغة و المعاني و ان يهتموا بالمضمون كاهتمامهم بالشكل لتكون اللغة العربية قادرة على التوصيل.

الكلمات الرئيسة: القديم، المحدث، التراث، التجديد، التوصيل، الشعر.

---

* تأريخ الوصول: ٨٣/١١/٢٥ ؛ تأريخ القبول: ٨٣/١٢/٢٠ ** استاذ في اللغة العربية و آدابها بجامعة العلامة الطباطبايي.

مقدمة:

خضعت الآداب العربية و بخاصة النثر في العصر الحديث إلى تطورات واسعة و دارت صراعات كثيرة حول الفنون الادبية، و الاساليب المختلفة التي تعرض بها، و الاتجاهات الفكرية التي تنبع من روح الامة و تراثها و اوضاعها السياسية و الاجتماعية التي تعيش فيها.

و لعل أهم الصراعات هذه تدور حول التراث و الحداثة، و الارتباط بالآخرين و الوسائل التي تساعد على التواصل، و عالمية الفكر، و الوصول بالادب و لا سيما الشعر الى مستوى عالميّ.

و موضوعنا هنا يدور حول القديم و الجديد في الشعر و الادب و الصراع بينهما و قدرة اللغة العربية على التوصيل.

القديم و الجديد في الشعر و قدرته على التوصيل

لا يقتصر الصراع بين القديم و الجديد أو الحديث على الشعر فقط، بل يتناول مختلف جوانب الحياة الانسانية، فالانسان بطبعه متمسك بما نشأ عليه، محافظ على عدم تضييعه من يديه، و لكنه مع ذلك قد يتوق الى التغيير و التبديل، و انتهاج جديد له علاقة بقديمه؛ و لهذا نقف دائما أمام تيارين يتنازعان حول كل ما يجدّ من حديث أو يظهر من بدعة؛ أكان ذلك في المأكل أو الملبس أو المذهب أو العادات و التقاليد أو الادب.

و قد شهدت العصور الادبية هذا الصراع و بخاصة في الشعر منذ العصر الاموي على يد الرواة، وكان على رأس من حاربوا المحدث أبو عمرو بن العلاء حيث يقول «لقد كثر هذا المحدث و حسن حتى لقد هممت بروايته» (عبدالله بن قتيبه، دون التأريخ، ص ٢)، و تحدث ابن قتيبة عن ذلك، و بيّن أنه «لم ينظر الى المتقدم من الشعراء بعين الجلالة لتقدمه، و لا الى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره، بل نظر بعين العدل الى

الفريقين من موافق و مخالف، و أعطى كلاًّ حقه» (نفس المصدر،ص ٢)، و يضيف ابن قتيبة : «انه رأى من علماء عصره من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، و يُرذِل الشعر الرصين، و لا عيب له عنده الا أنه قيل في زمانه أو رأى قائله». و يؤكد على أن الشعر الجيد موجود في كل وقت، و أن لكل زمن شعراءه المجيدين، و يضرب مثلاً على ذلك بشعراء عصره و الذين سبقوهم فيقول:« قد كان جرير و الفرزدق و الاخطل و أمثالهم يُعدون محدثين، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعهدهم لمن بعدنا كالخُزَيْميّ و العتابيّ و الحسن بن هانئ (أبونواس) و أشباههم» (نفس المصدر، ص ٢).

و ما زلنا نلاحظ هذا الصراع يتأجج بين حين و آخر، و يأخذ أبعاداً مختلفة، وكان يرتكز في العصور الاسلامية الاولى على استبعاد الشعراء الحديثين، و الرواية خاصة عن القدماء لضرورة الاستشهاد بشعرهم في تفسير القرآن الكريم.أو أنه كان ينبع من تعصب قبيلة لشاعرها، كما حدث في الصراع بين أصحاب النقائض جرير و الفرزدق و الاخطل، و تحزب قبيلة كل منهم لشاعرها.

غير أن الصراع بين القديم و الحديث اتخذ شكلاً جديداً بعد اتساع آفاق الثقافة في العصر العباسي، و ظهور عدد كبير من الشعراء المجددين و المبدعين أمثال بشاربن برد و أبي نواس و أبي العتاهية و ابن الرومي و أبي تمام و البحتري و المتنبي، و اعتماد بعضهم على العقل و المنطق و الفلسفة، و بلغ هذا الصراع أوجه بين أتباع شاعرين، كل منهما انتهج سبيلاً يختلف عن الآخر، هما أبوتمام و البحتريّ، فكان الاول يهتم بالحداثة و الثقافات الحديثة و الآخر مطبوع على الشعر القديم.

و لم يسلم شعر المتنبي بعد ذلك من التجريح، اما لاسباب شخصية أو للسبب السابق و هو ادخال الفلسفة في شعره، و انتهاج منهج جديد في الشعر.

و لكن الصراع الاكبر الذي حدث حول القديم و الحديث، كان مع ظهور الشعر الاندلسي المعروف بالموشحات، و الذي لم يقتصر على التغيير في المضمون، و

انما تعدى ذلك الى الشكل بشكل واسع لم يسبق اليه،فلحق هذا التغيير البناء العام للقصيدة، و عصف بكل ماكان القدماء يقدسونه من معان و ألفاظ و عروض و نظرات جمالية، مما زاد من شدة الصراع بين أتباع القديم و الجديد. و ليس من شك في أن الموشحات «خلقت لتصف حياة الدّعة و الانس و الهناء» (جودة الركابي، ١٣٧٦ هـ ص ٣٢٥)، و قد أغرق أصحابها في استعمال ضروب انواع البديع و البيان، مما أفقدها الكثير من جمالها مع المحافظة على خفتها و موسيقاها.

و اذاكان الاكثار من الصور و المجازات و البديع قد وصل بأبي تمام الى التعقيد و الابهام أحيانا و الذي أطلق عليه بعضهم اسم الرمز تجاوزاً،فانه لم يتجاوز في الشعر الاندلسيّ دوره الجماليّ و التزيينيّ، و اقتصر الصراع بين القديم و الحديث آنذاك على فكرة المحافظة على سلامة اللغة و الابتعاد عن المعاني الساذجة التافهة، و المحافظة على قالب القصيدة و منهجها، و الابتعاد عن الركاكة في التركيب، و هو ما كان يحرص عليه القدماء.

و اذا ما نظرنا اليوم الى ما وصلت اليه قضية الصراع بين القديم و الحديث، نصطدم باصطلاح الحداثة الذي لم يستطع النقاد الوصول الى تحديد مفهومها. فيرى بعضهم أنها قطع كل صلة بالماضي، و تغيير النظام السلفي، و الخلق لأعلى مثال، و يعتقدون بأن ذلك الماضي شؤم على الادب فيقول أدونيس: «كراهية التجديد غريزة فينا، نحن العرب» و يعقب على قوله هذا يوسف سامي اليوسف قائلا: «و بكل موضوعية و حياد أقول: ان أدونيس لم يفقه الماضي حق الفهم. أكثر من هذا، أضيف ما فحواه ان أدونيس يبتغي أن يتميز و لو بنوع من أنواع الهرطقة» (يوسف سامي اليوسف، ١٩٨٨ م، ص ٦٩). و يرى آخرون أن الحداثة ثورة على الشكل، و تقويض المبنى. و آخرون انها الثورة على الشعر التقليدي من ناحية الموضوع و الغرض، ويذهب فريق الى أن الحداثة هي في وحدة القصيدة. كما يذهب آخرون الى أنها الرمز و الترميز و اختلفوا في معنى الرمز، هل هو الاكثار من الصناعة البلاغية التي جرى عليها القدماء،

أم هو غربي مستورد، لا يعتمد على استعمال المفردة الشعرية أداة للترميز، و انما يهتم بالعلاقات القائمة بين الالفاظ، الى غير ذلك من الخصائص (نعيم الباقى، ١٩٩٥ م، ج ٦، ص ٢٧٤و ٢٧٥). أما حسين جمعه فيتحدث أثناء تطرقه الى الرمزية، عن البناء التكاملي للقصيدة أو لمقطع منها، فيرى أنه يكون في المعنى، و في الصورة الفنية التركيبية خلافاً للصورة الجزئية التي تتألق في الشعر القديم في البيت الواحد أحياناً، و أحياناً في الشطر الواحد من بيت، و يقول «ان الرمزية قد تكون شفافة، و قد تكون معتمة تبعاً لايديولوجية الشاعر السياسية و الاجتماعية و انهما برزتا في أشعار رواد الحداثة كالسياب و نازك الملائكة و البياتي ثم أخذتا تتبرعمان في أشعار من تقفوهما على ما تكامل من هذه الصيغ و يورد أمثلة على ذلك فيذكر لأدونيس في «مهيار الدمشقي»:

تولد عيناه
في سَفَر يسيل كالنزيف
من جثة المكان

و يشير الى أن هذا المقطع يذكره بصورة الشاعر القديم:

. . . . . و سالتْ بأعناق المطيّ الاباطح

(مصطفى حسن، ١٩٩٦ هـ، ص ١٣٦و ١٣٨)

ولكن هل استطاع الشعراء الحديثون أن يبتعدوا عن القديم، و يستغنوا عن التراث، و يخلقوا حديثاً، و هل تمكنوا من الثورة على الشعر ليصلوا الى «الصورة العليا للتغيير» كما يقول أدونيس (أدونيس، ١٩٨٠ م، ص ٢٤٥)، و أن يتخلصوا من أشكال التعبير القديمة كالتخلص في الثورة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية من البنى القديمة؟(نفس المصدر، ص ٢٤٥)

الحقيقة انه لا يمكن الفصل بين التراث و الحداثة و بين القديم و الجديد، و قد تغير ثورة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية بعض المظاهر السطحية في المجتمع كما

حدث في كثير من الثورات كالثورة الفرنسية مثلاً، و لكن التغيير الواقعيّ و الاساسيّ يكون بعد الثورة و بالتدريج. فليس بالامكان تغيير كل شيء في ليلة واحدة، و انتفاضة واحدة، بل لابد من العمل و ببطء، لترسيخ ما تهدف اليه الثورة في النفوس و العقول، و في العمق لا في السطح و الظاهر، فكثير من الثورات قد تبدأ بشخص أو فئة من الناس. يتبعهم آخرون حباً للتغيير، غير أن هذه الثورة لابد لها أن تسري في الاعماق، و تصبح جزءاً من كيان الافراد، و هذا لا يتم في وقت محدود و انما يتطلب زمناً طويلاً، فالتطور يتم عادة بشكل هادئ بعد أن يبدأ عنيفاً، ولكن بعض مظاهر الفساد التي تكون قد تفاقمت، و بعض أساليب الادب التي تكون قد بليت تدعو أحيانا الى عمل سريع يتم على يد فرد أو جماعة كما قلت، و اذا لم يتبع ذلك تغييرات جذرية و أساسية مستمرة، غدت الثورة كزوبعة في فنجان، و زوبعة الشعر كذلك فقد يظهر شاعر مبدع يحاول أن يثور على الماضي و التراث و يأتي بمحدث فيطلق الشعارات و يملأ الصحف و المجلات حول نظرته و آرائه، الا أن عمله هذا يحتاج الى ارسائه عملياً، فان لم يستطع ذلك، و لم يتابع خطواته أمثاله، بقيت شعاراته خاوية، و حبراً على ورق، وظل الشعر كما هو يسير في تطوره الطبيعيّ الهادئ. وليس معنى ذلك أن الثورة الشعرية لا تترك أي أثر، فهى و لا شك ستأتي بجديد ولكنه يظل سطحياً لا يتعمق، ما لم يتبنه عدد من الشعراء خلال فترات متعددة، و يعملوا على توطيده بعد الايمان به، و امتلاك الموهبة لتحقيقه.

فهل استطاع شعراء الحداثة أن يفعلوا ذلك؟ يقول السياب: (سامي اليوسف، يوسف، ١٩٨٨ م، ص ٧١).

سحائب مرعدات مبرقات دون أمطار.

و هو ما قاله أبو العلاء المعري قبله

سحائب مبرقات مرعدات لمهجة كل حيٍّ موعدات

فأبوالعلاء جعل البرق قبل الرعد و لحظ ذلك مع انه كان كفيفاً بينما لم يفعل

السياب ذلك مع تمتعه بالبصر و البصيرة.

و يقول خليل الحاوي (نفس المصدر، ص ٧٦و ٧٧) في قصيدة الكهف:

عرفت كيف تَمُطُّ أرجلها الدقائق

ليل تحجر في الصخور

و تركت خيل البحر تملكُ لحم أحشائي

و قبله قال امرؤ القيس: (الزوزني، دون التأريخ، ص ٢٧ ـ ٧٦)

و ليلٍ كموج البحر أرخىٰ سدوله

عليّ بأنواع الهموم ليتبلي

فقلت له لما تمطّى بصلبه

و أردف اعجازاً و ناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي

بصبح، و ما الاصباح منك بأمثل

فيالك من ليل كأنّ نجومه

بأمراس كتّان الى صمّ جندل

فالليل أرخى سدوله على امرئالقيس بأنواع الهموم و طال هذا الليل كأنه ناقة تتمطى بصلبها،و تردف أعجازاً، و تنوء بكلكلها، فيطول هذا الليل و يطول و يرهقه بهمومه و ما يسبب من ضغط شديد عليه، حتى وكأن نجومه شدت الى صخرة صلبة.

بينما نرى الوقت عند خليل الحاوي يطول كأنه انسان يمطّ أرجله، وكأن الليل تحجر في الصخور، ثم يقول: و تركت خيل البحر تملك لحم أحشائي، أي أنه ترك البحر بارادته يفعل ذلك، و اذا كان بارادته فلماذا لم يمنعه؟!

فالصورة التي أوردها امرؤالقيس اكثر دقة و مبالغة، و أجمل موسيقياً بالفاظها، و له السبق في ايرادها و ذكر المعنى الذي تتضمنه فما أشبه الصورتين، و ما أقرب

التراث من الحداثة.

و هذا صلاح عبدالصبور يقول: (يوسف سامي اليوسف، ١٩٨٨ م، ص ١١٥)

وضع النطعَ على السكة و الغيلان جاؤوا
و أتى السياف «سرورٌ» و أعداء الحياة
و هو مايذكرنا بتأبط شراً، و ألف ليلة و ليلة.

و لنستمع لمقاطع من قصيدة طويلة لاحد رواد الحداثة «أدونيس»، كان من الممكن ألّا نأبه لها أو نلتفت اليها، لولا ما ورد حولها من تقريظ و تمجيد، حتى اعتبرت حركة حديثة في اللغة، يقول أدونيس: (الياس خوري، دون التأريخ، ص ٧٧)

و أنت يا متاهات الحب
استنفضتُك و استشرفتُك
و أخذتْكِ عينايَ، برّدتْك و ثلّجتْك
و استنقعتْ فيك و جسرتْك
و أنا الآن، أنا سمك
فيك أخضخض جسدي
و فيك أستضحي لشمس حزازاتي و استدفي

يقول الياس خوري: (الياس خوري، دون التأريخ، ص ٧٨) ان بعض النقاد وجدوا في هذه الابيات «حركة اللغة، و صياغة جديدة، خاصة لحركة اللغة في الفعل الانسانيّ» و قد قرأت هذه الكلمات المتنافرة الحروف و المتنافرة الالفاظ و الغثة المعنى عدة مرات، فلم أجد فيها حركة اللغة بل تشويهها و لا صياغة جديدة و خاصة في الفعل الانساني بل مسخاً لها، و ذكرتني بقول ذلك النحوي: «ما لكم تكأكأتم عليّ كتكاكئكم على جنّة»، و قلت في نفسي: ما هذا الحب و متاهاته التي يستنفضها الشاعر و يستشرفها و يبردها و يثلجها و يستنقع و يخضخض جسده فيها؟! فهل بلغ الذوق عند النقاد

الحديثين هذا الحد من الابداع حتى انهم يرون ما لا نرى و يدركون ما لا ندرك، أم أنه بلاء العصر الجديد، و البدع الحديثة المستوردة من الغرب؟!»و ما الذي يجعلهم يرون في نشاز الاصوات ألحانا بديعة و يعتبرون كل ما يخالف التراث حداثة؟!فليرحمنا الله، و يا لضياع الادب في مأتم الطرب !

و اذا ما تجاوزنا الشكل في الشعر الحديث، و التفتنا الى المعنى و المضمون نرى «أدونيس» أيضاً يقول في قصيدة طويلة:

ليس لديّ ما أفعله
ليس لديّ ما أقوله

الى أن يقول:

من أين تجيئُني اذن ارادة الحياة
ارادة الاستمرار في الحياة

و كأنه يجد السبب فيقول:

الفراغ
الفراغ في أعضائي و في أنحائي
و الشك ضوئي الساطع
ألهذا يعلّمني الفراغ كيف أدجن الموت
ألهذا يلقنني أسرار نشأة ثانية
أكيداً
كان الفراغ نموذجاً أوّل لعمارة الغيب
خصوصاً جناته الموعودة

و هنا لابد أن نتساءل:هل الفراغ في حياة الانسان هو الذي يدفعه للشك و التفكير بالغيب و الجنة و النار، أليس هذا الموضوع الذي يطرحه السيد أدونيس نفس

الصراع القديم بين الكفر و الايمان، فأين الحداثة في كل هذا، و هل هي في الانفلات من الوزن و القافية، و اذا كان هذا شعر الحداثة فما هو النثر اذن؟!

لا شك في أن الآراء التي تبدى حول الشعراء و الادباء في أيّ عصر من العصور تنبع من مجريات هذا العصر، و المؤثرات المختلفة فيه و تتفق مع مايطبع هذه الآراء بطابع الارتجال القائم على المصالح و العقائد السائدة و العوامل الشخصية، و مدى صلة أصحابها بالاوساط السياسية و الاجتماعية و النفسية،و لابد لمثل هذه الآراء القديمة أن تختلف مع مايُبدىٰ منها فيما بعد، و ما ستراه الاجيال التالية، و قد رأينا عبدالله بن قتيبة يتحدث عن الشعراء المعروفين و المشهورين في عصره، و الذين سيصبحون قدماء بعده، كالخزيميّ و العتابي و ابن هانئ...، و نحن اليوم لا نسمع كثيراً بالخزيميّ و العتابيّ اللذين قدمهما ابن قتيبة على ابن هانئ أبي نواس المعروف لدينا، فالخزيمي (- ٨٢١م) (لويس مألوف، ١٩٨٦ م) فارسيّ الاصل، و الى البرامكة، له قصيدة في تاريخ بغداد، و لابد أن الذي جعله بن الاوائل كما نرى قربه من الوزراء البرامكة، و العتابي (- ٨٣٥م) (نفس المصدر، ١٩٨٦ م) أصله من قنسرين في حلب كان يفد على الخلفاء و الامراء و ينال جوائزهم و أكثر ما اتصل بالبرامكة. و لربما كانت لذلك تأخر، و اذا سمعنا اليوم بشعراء حديثين يذيع صيتهم و يرتفع اسمهم في دنيا الادب، و هم في الحقيقة بدرجة الخزيميّ و العتابيّ، فلابد أن لهم صلات صحافية أو سياسية أو عقائدية تساعد على بروزهم و انتشار صيتهم، ولكن ما سيكون حالهم في المستقبل ؟

و النقاد اليوم حين يذكرون الحداثة، يبغون من ورائها قدرة الشاعر على التوصيل أيضاً، فأين الشعر العربي في العصر الحاضر من التوصيل هذا؟

لقد شغلت قضية التوصيل في العصر الراهن المجتمعات العربية، لاتصالها اتصالاً مباشراً بمسألة الحداثة، و اذا كانت الحداثة تعتبر قديمة قدم الانسان التوّاق الى

التغيير و التبديل و التجديد، فان قضية التوصيل بالتالي هي امتداد لها، و قديمة قدمها.

و ربما كانت قضية التوصيل هذه تنحصر قديماً في اطار القبيلة بعد أن كانت تتمثل في اطار الجماعة الصغيرة، غير أن التعقيد الذي حدث في المجتمعات، و انفتاحها على العالم الذي حولها، جعل من الضروريّ البحث عن وسائل لايصال ما في النفوس الى أبناء المجتمعات الاخرى، بعد أن كان ذلك مقتصراً على أبناء مجتمع واحد، و اليوم نرى أن وسائل الاتصال أصبحت كثيرة، و الحاجة الى اللقاء الفكريّ غدا ضرورياً بين المجتمعات في كل نواحي الحياة، و ليس من شك في أن اللغة أهم عامل للتوصيل، و قد يكون لهذه اللغة وظيفة في التعبير اللغويّ في مجالات الاعلام و التوجيه و التعليم، الا أنها تعتبر أيضاً عاملاً مهماً فيما يسعى اليه الادب عامة و الشعر خاصة. ذلك أن الشعر يتحدث الى الآخرين من خلال المشاعر و الاحاسيس، فيكون أكبر تأثيراً، و أوفر حظاً في الايصال.

و اذا كان الشعر يستعمل نفس الكلمات و الالفاظ المتداولة في وسائل الاعلام المختلفة كالاذاعة و المرناة (التلفاز) و الصحف و المجلات، و كذلك المحافل العلمية، غير أنه يختلف عنها في استعمالاته لها و الاستفادة من مفاهيمها، فيوردها في خيال مبدع، و احساسات متدفقة، و رمزية مفرطة أحياناً تجعل من الصعب ادراك مضمونها بسهولة، و هذا يتوقف و لا شك على المتلقي و ثقافته و مدى قدرته على الاستيعاب و الادراك.

فقضية التوصيل قضية نسبية، لا يقتصر أثرها على اختيار الكلمات و ابتداع الصور، و اتباع الاسلوب الضروري، والشكل الذي يُعرض به المضمون فقط، و انما تتجسد و تبرز أيضاً من خلال قدرة المتلقّين على ادراك كل ذلك و استيعابه فالغموض الذي قد يظهر لبعضهم، يمكن ألا يلحظه الآخرون.

و كلما كان الشعراء قديماً يميلون الى التجديد و الحداثة، و ينحرفون بعض

الانحراف عن التراث، كانت تبرز قضية التوصيل و الغموض أحياناً، و قد لاحظنا ذلك بوضوح حين ظهرت الموشحات في الاندلس و ما تبعها من صراعات حول قضية التوصيل هذه مبنى و معنىً، و شكلاً و مضموناً. وكذلك الحال حين ظهر شعر المهجر، وكذلك لما احتدم الصراع بين أتباع الرومانسية و بين أتباع الكلاسيكية،و أخيراً حين ظهر الشعر الحر، تلك الظاهرة التي حظيت بقسط وافر من الضجيج و الصراعات والتي لم تكن في الحقيقة سوى امتداد لظاهرة الموشحات الاندلسية. غير أن الافراط في التحلل من البنية الشكلية للشعر أدى الى الابتعاد عن النموذج الشعري التقليدي العام، و اذا كانت الصورة المبتدعة و الاغراق في الخيال هو ما يميز الشعر من النثر، فان بعض من توفرت لديهم الموهبة و القدرة الخلاقة، أبدعوا في هذا المجال، و استطاعوا أن يضيفوا الاسطورة الى خيالهم هذا، و الرمز أحياناً، و توصلوا بذلك الى خلق نماذج تعتبر في قمة الابداع الشعريّ. غير أن الموهبة تلك قد لا تتوفر لكل الانسان، و قد يصبح هذا النوع من الشعر أداة تحط من قدره و قيمته الفنية كما رأينا عند كثير من المتشاعرين الذي يدعون أنهم من شعراء الشعر الحر و هم لا يملكون الموهبة اللازمة.

فالقضية اذن ليست قضية تفلت من الوزن و القافية أو التخلص من مضامين قديمة بالية فقط، و انما تعتمد اعتماداً كبيراً على الموصل نفسه، و على الشاعر القادر على التعبير عن كل خلجاته و مشاعره بأي شكل من أشكال التوصيل للوصول الى أبدع انتاج أدبي.

فمسألة التوصيل ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقدرة على استخدام وسائل التعبير و صياغة ما هو جديد و حديث و مبتدع صياغة فنية يمكن لمن يملك الثقافة الكافية تلقيها و التفاعل معها.

و لا يخفى أن الغموض في التوصيل، لا يظهر الا عند من تنقصه الموهبة و القدرة على الصياغة الادبية الواضحة و الابداع الفكري و كذلك عند المتلقي الذي يفتقر

الى الثقافة الضرورية لادراك الاثر المبدع.

و قضايا التراث و الحداثة و التوصيل ليست وقفاً على العرب و الادب العربي و انما نجدها في حياة الامم و الشوب الاخرى و آدابهم، فالشعوب الاسلامية قديماً وصلت الى نوع من الحداثة و التوصيل، فانتشرت أفكارها في مختلف أرجاء العالم القديم، و أسست حضارة فكرية اسلامية مبدعة، ولكن ضعف هذه الدول الاسلامية في العصور الاخيرة عامة و الدول العربية خاصة، و انحسار امتداد اللغة العربية عن كثير من البلاد الاسلامية، أوقف المد اللغوي العربي هذا، وقدرته على التوصيل.

و الآن نرى الغرب، و حداثته الغربية و عولمته يسعى الى غزو العالم فكرياً و ثقافيا و اجتماعياو سياسياً، غير أن ما أرسته الامة الاسلامية من تراث، و ما تبعه من يقظة في العالم الاسلاميّ و منه العربي. وقف حجر عثرة أمام ذلك الاجتياح ذلك أن التواصل الغربي الجديد لم يكن تواصلاً ثقافيا فكرياً يهدف للاصلاح، و انما يسعى الى طمس الهوية الثقافية لدى الشعوب الاخرى، و القضاء على تراثها، و بالتالي نقل ثقافته اليها، و هي لا تتفق مع حياتها و أصالتها.

فالتواصل عند الغرب و الحداثة تعدّيا حدودهما القائمة على تجديد البناء الفكري و مال الى الهدم و التخريب، و القضاء على الوجود الثقافي لدى الآخرين، و استبداله بثقافة غريبة عنه.

و العرب اليوم ان أرادوا بناء ذواتهم الفكرية و العمل على تطويع اللغة و تطوير الاساليب التعبيرية بحيث تكون قادرة على التوصيل، عليهم أن يعملوا على التغيير في العمق، و ألا يكتفوا بالشكل بل و بالمضمون أيضاً، و بذلك يمكنهم مقاومة المد الثقافي الاجنبي، و التخلص من حبائل الثقافة الغربية التي تعمل على الايقاع بهم في شباك التحلل الجسميّ و الروحي، و هذا لا يتم الا اذا تعلقنا بالتراث و حاولنا التجديد في اطاره، و التعبير عما نريد بلغة سهلة واضحة، مع الاحساس بالمسئولية النابعة من صميم قلب الانسان و ضميره، و لا يتحقق هذا الا على يد من وهبهم الله

موهبة الابداع الادبي، و بلغوا درجة عالية من الثقافة و الوعي القوميّ و الانسانيّ.

نتيجة البحث:

لا يمكن للامة العربية الوقوف امام المد الثقافي الغربي و المحافظة على كيانها الادبي و الثقافي الا اذا طوّرت لغتها وتعمقت في تراثها و خلقت ابداعات تتناسب مع الحضارة الحديثة و الحياة الجديدة، و ألا تنظر الى التجديد على انه تغيير الشكل فقط بل يجب أن يصل الى العمق مع الاعتماد على درجة عالية من الثقافة و الوعي القوميّ و الانسانيّ.

المصادر و المراجع

١ـ ابن قتيبة، عبدالله؛ الشعر و الشعراء، مصر، مطبعة السعادة، دون التأريخ.

٢ـ أدونيس؛ فاتحة لنهايات القرن، بيروت، دارالعودة، ١٩٨٠.

٣ـ أدونيس؛ مدارات يكتبها أدونيس، مجلة الحياة، العدد ١٢، سنة ١٩٨٠.

٤ـ خوري، الياس؛ دراسات في نقد الشعر، دار ابن رشد، دون التأريخ.

٥ـ الركابي، جودة؛ في الادب الاندلسي، دمشق، الجامعة السورية، الطبعة الاولى، ١٣٧٦هـ

٦ـ الزوزني، حسين؛ شرح المعلقات السبع، ايران، انتشارات اروميه، دون التأريخ.

٧ـ سامي اليوسف، يوسف؛ اثر التراث على الشعر العربي المعاصر في ضمن كتاب: «في قضايا الشعرا العربي المعاصر»، تونس، ١٩٨٨ م.

٨ـ مصطفى، حسن؛ هوامش على صدمة الحداثة في الشعر العربيّ، مجلة المعرفه، العدد ٣٨٩، شباط ١٩٩٦ م.

٩ـ مؤلوف، لويس؛ المنجد في الاعلام، بيروت، المكتبة الشرقية، ١٩٨٦ م.

١٠ـ الباقي، نعيم، الشعر العربي المعاصر في سوريا و لبنان، ضمن كتاب معجم البابطين، ١٩٩٥ م.